اسم الدرس : تفسير سورة الأنعام | ح٦ | الآيات [٣٩ : ٤٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

نكمل بإذن الله _عز وجل_ تفسير سورة الأنعام، توقفنا عند قول الله _عز وجل_ في الآية ٣٩

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِهۡ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ) [الأنعام:٣٩]

ذكرنا المرة السابقة مدى حرص النبي _صلى الله عليه وسلم_ على إيمان قومه، النبي _صلى الله عليه وسلم_ كان أحرص الناس على إيمان قومه، و كما ضرب النبي _صلى الله عليه وسلم_ المثل في التشبيه "مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد نارًا فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها..... و أنا آخذ بحُجَزكم عن النار...." [١]

و ذكرنا أن الله –سبحانه وتعالى– يحذر الدعاة — فالنبي صلى الله عليه وسلم بعيد عن مثل هذا — فيحذر الدعاة من الانشغال بعمل نفق في الأرض أو سلم في السماء، فيعملون _كما ذكرنا_ أفعالا بعيدًا عن مراد الله _عز وجل_ .نحن نبلغ الدين للناس، و على قدر انشغالنا بتبليغ هذا الدين للناس على قدر ما يكون التوفيق.

فمثلا هناك جهد طيب من كتير من الشباب المنشغل بمسألة أن يأتي بمجموعات من الناس الذين يحاربون الدين و يصمم فيديوهات مثلا للسخرية منهم. هذا الجهد –بعيدا عن الكلام في صحته من عدمها ليس هذا هو الشاهد–، لكن ما أريد أن أقوله لماذا لا توجد فيديوهات تبين ضلال هؤلاء فعلا بآيات وأحاديث؟ لماذا لا يأتي المقطع ثم يأتي بعده بآية أو حديث تبين مدى بُعْد هذا عن الكتاب والسنة؟

نحن معنا أدوات أقوى من ذلك، القضية ليست مجرد أن نُضحِك الناس عليهم، القضية أن نبين للناس أن هؤلاء على ضلال، الأَوْلَى أن نبين للناس أن أفعالهم هي قمة الضلال و البعد عن دين الله _عز وجل.

كأن يذكر مثلًا فلان الفلاني قال كذا، والله _عز وجل_ يقول كذا، فبذلك نحن نجعل الحكم للقرآن؛ القرآن هو الذي يحكم وليس أنا.

[١] - عن جابر بن عبدالله:" مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النّارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي"
مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٢٢٨٥ • [صحيح]

لذلك لما قال الله _عز وجل_ ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة:٩٧] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معاني حدود ما أنزل الله، ما معنى إن الأعراب لا يعلمون الحدود؟ ليس المقصود هنا الحدود التي هي قطع اليد ولا الجَلْد ولا...، وإنما المقصود هنا "حدود ما أنزل الله" إن الله _عز وجل_ جعل لكل شيء حدًا واسمًا، فالذي لا يعلم أن مَن يفعل هذا يكون فاسقًا، و مَن يفعل هذا يكون منافقا، و مَن يفعل هذا يكون كافرا؛ هذا يكون جاهلا بدين الله _عز وجل.

وبما أن الأعراب بعيد عن مكان النبوة، وبعيد عن تلقي الوحي، وبعيد عن أن يذهبوا ليتعلموا العلم الشرعي، فبالتالي لا يعلمون الحدود التي في الشريعة، وأن مَن يفعل كذا اسمه منافق، وأن مَن يغتاب هو كذا، وأن هذا من الكبائر، لا يعلمون الحدود الشرعية والأسماء الشرعية. ودور أهل العلم أن يبينوا للناس كل شيء باسمه الصحيح.

ينبغي أن نعلم إن قول الله تعالى ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا﴾ [النساء٦٠، ٦١]

الله يخبرك حين تقول للناس هلمّوا إلى شرع الله و تجد منهم مَن لا يريد؛ هؤلاء سماهم الله _عز وجل_ منافقين. هذا ليس رأيي ولا تقييمي، وإنما هو كلام الله _سبحانه وتعالى_ (رأيت المنافقين)

...فعندما نتحرك بهذه الطريقة نجعل القرآن حَكَمًا على الناس، ولسنا نحن مَن نحكم عليهم.

إذًا نأتي بكلامهم و نأتي بقول الله تعالى وقول الرسول _صلى الله عليه وسلم_، فبالتالي الذي يقول هذا الكلام ينطبق عليه نص كذا، ما لم يمنع مانع؛ مثل أن يكون عنده جهل مثلا، فنحن نفهمه... لماذا لا تكون معركتنا معركة دين؟

إذا كنت تقول إن هذا يحارب الدين، بيّن للناس كيف

يحارب الدين، وفلان الفلاني ينصر الدين، بيّن للناس كيف ينصر هذا الدين.

نعود مرة أخرى؛ فالله ـعز وجلـ يحذر الدعاة ألا ينشغلوا بعيدا عن الوحي وبعيدا عن دينه بنفق في الأرض أو سلم في السماء... ثم بيّن الله ـعز وجلـ أن الذي يحتاج آية فالكون مليء بالآيات (وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ) [الأنعام :٣٨]

ذكرنا المرة السابقة إن "الكتاب" قيل إنه القرآن أو اللوح المحفوظ، و مَن قال القرآن ذكرنا لماذا قال القرآن.

بعد ذلك الآية ٣٩ (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ)[الأنعام:٣٩] .. يقول الله ـسبحانه وتعالىـ هؤلاء لم يكذبوا نقصا في الآيات، هؤلاء كفروا ليس لعدم وجود آيات واضحة، وإنما كفروا لأنهم أعرضوا عن الآيات، لذلك يقول ربنا سبحانه وتعالى (والذين كذبوا بآياتنا) أي أنه ثمة آيات، والآية تعني: العلامة الواضحة، فالذي كذب بالآيات سيظل (صم وبكم في الظلمات)

على قدر ما يبتعد الإنسان عن دين الله عز وجل، على قدر ما يدخل في الظلام.

ولو تذكرون أول سورة الأنعام

(ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ) [الأنعام:١]

قلنا الظلمات تشمل الحسية، أو المعنوية التي هي الضلال، ودائما تأتي كلمة الظلمات جمع لأن الأهواء كثير، لكن النور يأتي مفرد لأنه نور واحد فقط، صراط مستقيم واحد فقط.

(وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ) [الأنعام:٣٩]

إما أن هذين الوصفين–صم و بكم– لشخصية واحدة، أو أن الصم هؤلاء شخصية و البكم شخصية أخرى، تذكرون هذا الكلام؟

الصم الأتباع الذين (وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ) [الأنعام:٤]

لا يريد أن يسمع، وضع الكُرسُف "القطن" في أذنيه، ولا يريد أن يسمع.

والبكم هؤلاء هم المتبعون القادة السادة الذين يعلمون، الذين عرفوا الحق ولم يتكلموا به؛ بكم.

إذًا هناك صنف بكم و صنف صم، أو أنهم صنف واحد (صم وبكم في الظلمات)... آية تُريح الداعية وتخبره أن دوره تبليغ رسالة، لكن الهداية بيد الله ـعز وجلـ (إنك لا تهدي من أحببت) [القصص:٥٦]

يقول الله ـسبحانه وتعالىـ هنا (مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِهۡ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ)[الأنعام:٣٩]

الجميل هنا في آية الأنعام أنها أتت بقمة الهداية، لم يقل الله "ومن يشأ يهديه" ، وإنما قال (من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) كأنه يُحمل هكذا ويُلزم الصراط المستقيم لا يخرج عنه، يجعله على قمة التمكن، مثل (أولئك على هدى من ربهم) [البقرة:٥]

(ومن يشأ يجعله) كله؛ كيانه، ليس قلبه أو فكره، هو كله يكون متمكنا من الصراط المستقيم لا يخرج عنه.

فالآية أتت بقمة التوفيق في الهداية لمن أراد الله ـعز وجلـ له ذلك.

إذًا وحتى ندخل في المعنى الجديد، هذا الذي أعرض و كذب لم يكذب نتيجة نقص الآيات. فلا تضيع وقتك أن تخترع له آيات جديدة كي يؤمن بالله ـعز و جلـ ، أو أنك تريد أن تعمل له نفق في الأرض أو سلم في السماء، هو أعرض عن الآيات، يكفيه القرآن آية، يكفيه الكون آية، أي دابة يختارها في الأرض، و أي طائر في السماء يختاره يتدبر فيه سيصل إلى الله.

كل الآيات التي حولنا الكونية و القرآنية، كلها كفيلة أن تقود الإنسان إلى الهدى، لكن القضية ليست قلة الآيات.

مثل المعنى الجميل الذي قاله الدكتور محمد أبو موسى في تفسير سورة الأحقاف ؛ يقول في قول الله ـعز وجلـ

(وَلَقَدۡ أَهۡلَكۡنَا مَا حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡقُرَىٰ وَصَرَّفۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ () فَلَوۡلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرۡبَانًا ءَالِهَةَۢۖ بَلۡ ضَلُّواْ عَنۡهُمۡۚ وَذَٰلِكَ إِفۡكُهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ) الآية التي تليها مباشرةً (وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ) [الأحقاف:٢٧-٢٩]

فيقول انتبه لكلمة (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) ربنا صرّف الآيات أي نوّع الآيات كثيرًا جدًّا؛ لماذا؟ لذلك الآية التي قبلها

(وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ) [الأحقاف :٢٦]

إذًا ربنا أعطاهم سمعا وأبصارا و أفئدة و صرّف لهم الآيات وكل هذا لم يغنِ عنهم شيء، ولكن مَن الذي آمن في آخر السورة؛ سورة الأحقاف؟

إنهم الجن (وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ) [الأحقاف:٢٩]

فمحمد أبو موسى يقول كلمة جميلة "ليست القضية في تصريف الآيات ولكن القضية في صرف القلوب"مرة أخرى ليست القضية في كثرة تصريف-تنويع- الآيات، فقد يرى ألف آية و لا يؤمن، لكن القضية أن يصرف الله القلب إلى الطاعة... يا مقلب القلوب و الأبصار ثبت قلوبنا على دينك و يا مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك.

إذًا (وصَرَّفنا الآيات) لم تنفع معهم، لكن (صَرَفْنَا إليك) أي وَجّهناهم، فاكتفوا ببضع آيات يسمعونها قَدَرًا في الصلاة؛ النبي ـصلى الله عليه وسلمـ قام يصلي و هؤلاء يمرون هكذا فماذا حدث؟ سَمِعوا الآيات فآمنوا.

أي أن مشركي قريش كل الذي شاهدوه من الآيات وسمعوه لم يؤثر فيهم، و هؤلاء وهم يمرون هكذا بضع آيات أثرت فيهم؛ لأن الله ـعز وجلـ صرف قلوبهم إليه. فيقول الله ـعز وجلـ للنبي ـصلى الله عليه وسلمـ لا تشغل بالك؛ (من يشأ الله يضلله، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) [الأنعام:٣٩]

ثم خاطبهم (قل) وَضِّح لهم وبَيِّن لهم _هؤلاء الذين ينكرون التوحيد، الذين ينكرون أن الله _عز وجل_ يملك كل شيء، (قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوۡ أَتَتۡكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَدۡعُونَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ () بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ) [الأنعام :٤٠،٤١]

هؤلاء أيضا إذا قلنا إن هذه الآيات رد على (وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ) [الأنعام:٣٧]

كلما طلبوا آية؛ القرآن يوجههم توجيه آخر غير الآيات الحسية، أو آيات حسية في صورة أخرى، أن يطالبهم بالنظر إلى الأقوام السابقة الذين أهلكوا من قبلهم.

ففي أول السورة عندما طلب آية قال الله له انظر و تدبر في الأقوام الذين أهلكوا... و هنا عندما طلب آية وضعه هو نفسه (قل أرءيتكم) أنت تخيل نفسك و أنت في منطقة العذاب، و هذه من أساليب الدعوة؛ أن تقول لشخص وجدته يفعل معصية و أردت أن تنصحه؛ فتقول له:" أريدك أن تتخيل أنك من الممكن أن تصاب بحادث أثناء عودتك _وهذا وارد_ نسأل الله العافية_ لكن يمكن أن تصاب بحادث وتصبح بين الحياة والموت، فهل وقتها ستتوب أم لا ؟، وقتها ستطلب من الله أن يعفو عنك أم لا ؟" فأنت تضع مَن تخاطبه في المشهد.

تأتي به بشخصه هو (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ) أنتم أنفسكم، ليس الأقوام السابقين؛ بل أنتم (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ) [الأنعام:٤٠] هل ستذهبون لأحد غيره؟

والمشركون كانوا دائمًا يمرون بهذه المسألة، يظلون يشركون بالله ويدعون من دونه إلى أن يصبحوا في وسط البحر و تشتد الريح، فيقولون "يارب نجنا".

وكما نقرأ في قصة إسلام عكرمة بن أبي جهل، أنه ركب البحر ، كان قد فرَّ من النبي _صلى الله عليه وسلم_ كي لا يقتله، وركب البحر وكان معهم الأصنام، هاجت السفينة و جاءت الريح وكادت السفينة

تنقلب، فرموا الأصنام، فقال لهم ماذا تفعلون أليست هذه آلهتكم! قالوا يا عكرمة هذا يوم لا ينفع فيه إلا مَن في السماء...فما الفرق بين هذا اليوم والأيام الأخرى؟!

فدائمًا مدخل المشركين أن تُذكِّرهم بالضراء عندما تتكالب عليهم.

لذلك في سورة الدخان؛ عندما جاء الدخان قالوا(رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ) [الدخان:١٢]

عندما جاء الدخان المبين قالوا (ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) عندما يُضغط عليهم يتوبوا، فالحل مع هؤلاء أن تُذَكِّرهم دائمًا بأوقات الشدة، ذَكِّرهم بالضراء.

(بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ) [الأنعام:٤١]

لا تنتظر إجابتهم بل أجب أنت. فعندما تخاطب شخصًا وتقول له وأنت تفعل هذه المعصية قد تُصاب بحادث وتدخل المستشفى وقتها ماذا ستقول _لا تنتظر إجابته بل أجب أنت_ وقتها ستقول يارب ليس لي أحد سواك، تُبتُ إليك، فلماذا ننتظر وقوع الضراء؟ لماذا ننتظر أن نقول يارب ونحن على فراش الموت؟ هذا أسلوب في الدعوة، أن تضع مَن تدعوه مكان مَن يُعذَّب؛ مكان الابتلاء و تجيب بدلًا منه، (بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ) وانتبه إلى كلمة (وَتَنسَوۡنَ مَا تُشۡرِكُونَ)

الإنسان عندما يقع في الضراء كل همه أن ينجو، تماما مثل فرعون، ظل يحارب موسى _عليه السلام_ و يحارب الآيات ومهما رأى من آية...العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات، كل هذا بلا فائدة، رأى البحر ينشق ولا فائدة أيضًا، وهو يغرق ماذا قال؟ قال آمنت. لماذا قالها هنا؟ لأنه أراد أن ينجو.

نحن ذكرناها في شرح قول الله _عز وجل_ هنا أيضًا في سورة الأنعام (وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا) [الأنعام:٢٧]

أول ما يدخل النار ماذا يريد؟ يريد أن يهرب، هو حقيقة لم يؤمن بدليل (فلما نجاكم إلى البرأعرضتم) [الإسراء:٦٧] ، بدليل (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد) [لقمان:٣٢] ، مثل الرجل الذي مات ــوقد ذكرنا قصته من قبلــ، الرجل الذي مات، ثم وهم يغسلونه أفاق ، و عاد يعصى الله مرة أخرى.

القضية أنه يريد أن ينجو، ولكن على الأقل هو به نسبة من الخير، فمن يتوب إلى الله في الضراء، وإن كان مراوغ فهو يراوغ مراوغة نفسية، ولكن على الأقل من الممكن أن يؤمن فهذا الشخص لا تقطع معه، لذلك سيأتي بعد ذلك في الآيات نموذج، لا يؤمن حتى في الضراء.

للشرك دركات

هناك نقطة أريد أن أقولها لكم، أن هناك مراحل للشرك أو دركات، ولن أتكلم على إنكار الإله، لإن منكر الإله هذا ملحد، ولكن الشرك الموجود تقريبا ثلاث دركات:

ــالدركة الأولي ؛ وهي أسوأ دركة فيهم ، أن يذهب لصنم أو لمعبود، ويعتقد أنه هو الإله الأوحد وأنه هو الذي ينفع ويضر، وهذا النوع كان نادر جدًا في جزيرة العرب، إذاً فمن يعتقد أن بوذا هو الإله أو البقرة هي الإله الأوحد التي تنفع وتضر ولا يوجد إله آخر في الكون، هذه أسوأ دركة من دركات الكفر.

ــالدركة الثانية ؛ وهي أعلى قليلا، أي أفضل قليلا ولكن جميعها سيئة على كل حال، وهى أن يعتقد أن هناك إله في الكون، ولكن هذا الإله – مسألة الحلول والاتحاد – يَحِلُّ في هذا الصنم أو في هذا البشر او في هذا الحيوان –تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوًّا كبيرًا– يعتقد أن هناك إله لكن هذا الإله يَحِلُّ في شيءٍ معين .

ــالدركة الثالثة ؛ وهي التي كانت عند قريش، فهم يعتقدون أن هناك إله ينفع ويضر ويملك مقاليد السماوات والأرض، ولكن هناك وسائط بينه وبين العباد، فالعباد لا يستطيعون الوصول إليه مباشرة، فكانوا يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) [الزمر:٣] ، كمن يقول لك أتريد أن تعبد الله مباشرة؟!! فهم يقولون " لا، عليك أن تعبد الأصنام، والأصنام ستقربك إلى الله".

كمن يقول لك الآن أتريدون أن تدنسوا الدين بالسياسة؟، فالسياسة بعيدة عن الدين بالنسبة إليه، أتريد أن تفسد الدين!، فهو يعتقد أن الدين أمر سماوي لا يطبق على أرض الواقع، فالشاهد أنهم يقولون: (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، وهذا الصنف الثالث وهم مشركو قريش عندما يُصابوا بضر شديد ينسى هذه الوسائط فيلجأ إلى الله، يقول: يا رب يا رب (مخلصين له الدين) [يونس:٢٢] أما الآخر عندما يقع في مشكلة ومهما ازداد عليه الضر يزداد كفرًا، فليس له إله، فكلما يزداد الضر عليه كلما يزداد تقرب للإله الباطل، كلما يزداد كفرًا، وهذا ليس هناك أمل من حاله، فالضراء لا تنفع معه، وكذلك الصنف الثاني.

أما الصنف الثالث فالضراء تنفع معه، لأنه أحيانا يدرك أن الآلهة لا تنفعه ولا تضره فيتوجه الى الله عز وجل، فالله يقول للنبي صلى الله عليه وسلم بعد قوله تعالى: (وتنسون ما تشركون) [الأنعام:٤١]

يقول تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ () فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ())[الأنعام:٤٢،٤٣]

كأن الله يُسَلِّي النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول له أن قومك على الأقل عندما تصيبهم الضراء يلجأوا إلى الله، ولقد كان هناك أقوام قبلك أصابتهم البأساء والضراء ولم يتضرعوا إلى الله وقست قلوبهم.

فبعض المفسرين حاولوا أن يربطوا الآية بهذا المعنى، وأن هذه الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، فقومك عندما أخبرتهم (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ () بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ) [الأنعام:٤٠،٤١] فلم يردّوا وأقروا لأن هذا يحدث لهم بالفعل... فهم يدعون الله مخلصين له الدين في منتصف البحر، وهناك غيرهم أرسل الله إليهم الرسل ومع ذلك كانوا في شدة الإنكار والإعراض مهما اشتد عليهم الضراء، مثل تمامًا قوله تعالى (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) [الأحقاف:٢٤] وفي الآثار أن قوم هود قالوا له: لقد كذبت علينا يا هود، قلت لنا سينزل علينا عذاب، وجاء المطر وليس هناك عذاب ولا شيء!!! فهم لآخر لحظة لا يريدون التصديق أنه سينزل عليهم عذاب، فهؤلاء غير قوم النبي صلى الله عليه وسلم، فقومه صلى الله عليه وسلم عندما رأوا الدخان قالوا (هذا عذاب أليم () ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون) [الدخان:١١،١٢].

رحمة من الله بعباده

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) [الأنعام:٤٢]

فهذه سنة من سنن الله عز وجل في معاملة العباد.

أولًا: الله عز وجل يرسل رسول، وهذا الرسول يأتي لهم بالآيات، فيعرضوا عنها، فيستمر طرح الآيات عليهم والله عز وجل مع طرح الآيات –وهذا من رحمة الله – لا يكلفهم أن يصلوا وحدهم لأنهم لن يستطيعوا، فمن رحمته سبحانه أنه يُنَزِّل لنا رسل ووحي، ولكن الناس مع ذلك لم يؤمنوا، فالله سبحانه وتعالى من رحمته لكي يؤمنوا يصيبهم بالضراء لكي يفروا إلى الله.

فالإنسان عندما يُضَيَّق عليه ينسى كل الافتراءات والأوهام (وتنسون ما تشركون) [الأنعام:٤١] ، لذلك عندما تجد المشركين يتبعون منظومة من القوانين الباطلة للآلهة بالنسبة للأكل- ستأتي لنا في آخر سورة الأنعام، وهي منظومة باطلة، سنذكرها في آخر السورة-

لكن عندما يجوع ينسى المنظومة كلها ويأكل الآلهة، تماما مثل إله العجوة، فيصنع إله من العجوة ويعبده، وعندما يجوع ينسى عبادته هذه ويأكل العجوة، فهذه الفطرة عندما يُضَيَّق على الإنسان ينتبه ويفيق إلا من انتكست فطرته والعياذ بالله، فهذا الضغط في مسألة الجوع والتضييق لا يأتي معه بنتيجة، وهذا حال هؤلاء الأمم لذلك الله سبحانه وتعالى يقول (وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) [الأنعام:٤٣].

إذًا مشركو قريش الشرك لم يأخذهم بعيداً، فهم وقفوا عند مسألة أن هذا الصنم –والعياذ بالله- يقرب إلى الله، وعندما يُضَيَّق عليه (دعوا الله ملخصين له الدين) [يونس:٢٢].

لذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ضغط عليهم في هذه النقطة، ذكَّرهم بمواقف ضعفهم، لذلك أحد المعاني في قول فرعون (أنا ربكم الأعلى) [النازعات:٢٤] ، قال بعضهم: أن فرعون كان يقول: أن الإله يحل فيه، فالمؤرخين اختلفوا كيف كان فرعون هو ربهم!!، هل هو من خلق؟!، فقالوا أنه كان هناك آلهة

متعددة و إله أكبر والعياذ بالله، فهناك إله للحب وللشمس و للنور وهناك إله أكبر، وهذا الإله الأكبر يحل في فرد–حلول واتحاد– وهو فرعون.

لذلك الطوفان والجراد والقمل والضفادع لم يؤثروا معهم... لأنهم لا يؤمنوا بالإله الذي هو فوق كل هؤلاء، لذلك شرك الفراعنة كان أشد من شرك قريش مع أنهم جميعا مشتركون في الشرك. فكلمة (وتنسون ما تشركون) [الأنعام:٤١] متى تأتي؟، عندما تكون فطرة الإنسان سليمة ويُضَيَّق عليه في الضراء، فهو يعبد الأصنام والآلهة وعندما يكون في نصف البحر يقول يارب (وتنسون ما تشركون)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) [الأنعام:٤٢]

قلنا أن من رحمة الله أنه سبحانه وتعالى لم يكتف بإرسال الرسل، ولكن برحمته سبحانه وتعالى يُضَيَّق علينا لكي تصحوا فطرتنا، فنشعر أننا ليس لنا غيره نلجأ إليه (ففروا الى الله) [الذاريات:٥٠]، وهذا هو الأمر الثاني بعد إرسال الرسل بالآيات.

قالوا البأساء: الفقر، والضراء : المرض...

وبعضهم قال البأساء : أي شيء يصيب الإنسان لكن في الظروف المحيطة، في المال، في العيش، في كل ما هو حولك

الضراء: في بدنك ونفسيتك، فما يصيبك من ألم في نفسيتك أو في بدنك هذا ضراء، فربنا سبحانه وتعالى أحاط بهم حتى يتوبوا إليه سبحانه وتعالى

وكلمة "أخذناهم" تفيد قمة التمكن (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ) ولكن لماذا يفعل الله بهم هذا؟ (لعلهم يتضرعون) [الأنعام:٤٢].

معني التضرع

التضرع أصله في اللغة: ابن الناقة أو أي دابة تريد أن ترضع من ثدي أمها، فهي تنخفض لكي تمسك بالضرع، فابن الناقة عندما لا يستطيع أن يصل إلى ثدي أمه يتضرع، فهو زيادة في الانحناء لجلب الرزق، فالتضرع زيادة في الانحناء لكي نجلب الرزق، ولله المثل الأعلى.

فالذي يتضرع إلى الله كأنه يكسر نفسه ويمرغ رأسه في التراب لكي يزول عنه البؤس والشدة، وهذا النموذج أخبر الله به النبي صلى الله عليه وسلم لكي يصبر على قومه، فأخبره أن هناك أناس مهما ضُغِط عليهم بالبأساء والضراء فلا فائدة فيهم.

(فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[الأنعام:٤٣]

فهذه هي الإشكالية، ففطرة الإنسان أنه عندما تحدث له مشكلة تجده دائما يراجع نفسه، حتى ضعاف الإيمان عندما يُبتلوا في طريق الدين يُفكِّر لماذا يحدث لي هذا؟!، فهذه هي فطرة الإنسان إما أن تنقله من الحق للضلال أو بتوفيق ربنا تنقله من الضلال للحق.

فهؤلاء عندما ضُيِّق عليهم بالبأساء والضراء لم يفكروا، ولكن زين لهم الشيطان عملهم وأبعدهم عن الحق وأن ما يحدث لهم قد يكون بسبب المعاصي، بل زين لهم أن هذه أمور تمر على جميع الناس، حتى أباءهم مروا بذلك فهو أمر طبيعي، فالشيطان يزين لهم ما هم فيه وينسبوا البأساء والضراء لغير الله، فهذه أحد سبل تزيين الشيطان، فعندما تأتي عاصفة تهلك قرية، فنقول له أرأيت القرية الظالمة كيف أهلكها الله عز وجل، فيقول لك ما هذا التخلف والرجعية!، هذا بسبب الرياح الشمالية الجنوبية الشرق غربية، وبسبب كذا وكذا!!

فكل شيء ينسبه إلى غير الله، إهلاك قرية، خسوف، كسوف، صاعقة، خسف، مسخ، أي شيء يحدث من عقاب من الله عز وجل ليكون آية للناس، هذا ينسبها لغير الله، وهذا أحد معاني قول الله عز وجل (إِذَا لَهُم مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا) [يونس:٢١] ، فعندما تحدث الآية يحاول يمكر، يحدث زلزال يقول بسبب كذا وكذا، فتخبره أن سيدنا عمر عندما حدث الزلزال في المدينة قال : والله لو حدث مرة أخرى لا أساكنكم فيها أبدًا وتوبوا إلى الله.

والنبي صلى الله عليه وسلم من قبل عمر، عندما كان يحدث الخسوف يدخل و يخرج ويصلي صلاة طويلة، و إذا كانت غمامة في السماء يدخل ويخرج ويخاف، ويقول " يا عائشة وما يؤمنُني أن يكون فيه

عذاب"[٢]، فهذا فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وفعل عمر ابن الخطاب، ولكن هم ينظرون إلى الأسباب الدنيوية، فالشيطان يمكر بالناس ويزين لهم عملهم، فبالتالي الناس لا تشعر أن هناك مشكلة، فأصبحت وسيلة الإيقاظ في نزول البأساء والضراء لا تؤثر فيهم!!!

إذًا الآيات القرآنية والوحي لم تؤثر فيهم، وكذلك البأساء والضراء لم يؤثر فيهم، فهنا تأتي المرحلة الثالثة، وهي مرحلة الاستدراج، (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) [الأنعام:٤٤]

ضع في اعتبارك كلمة (وتنسون ما تشركون) وهذه ماذا؟ (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) عندما تصل أمة لهذا والعياذ بالله، لا يوجد في ذاكرتها شيء اسمه ربنا، ناسية، لا يوجد في الحسابات ولا في الكلام ولا في البرامج ولا في الجرائد ولا في النقاشات ولا بين الناس، هذه الكلمة–كلمة " الله "– لم تعد موجودة بين الناس، ينسون وجود الله في حياتهم... البأساء متتالية، الضراء متتالية، مشاكل و ابتلاءات، كل هذا ولا يريد أن يعود لله... لا يوجد ؛ يا جماعة نصلي ركعتين، نتوب، هذا الكلام اتمسح من ذاكرتهم.

عندما يصلون لهذه المرحلة (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) [الأنعام:٤٤]

(حتى إذا فرحوا بما أوتوا) حين يصلوا لمرحلة الفرح، مرحلة الفرح هذه التي قال ربنا عنها في سورة يونس (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) [يونس:٢٤] دائما الله عز وجل يأخذ الناس في قمة الغطرسة والتكبر، يظن أنه قادر على الأرض، مامعنى (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) ؟؟ هو معتقد أنه يفعل ما يريده في الأرض، لو أراد أن يحفر أو ينزل المطر، يعتقد والعياذ بالله – وهذه قمة الذي يحدث والعياذ بالله في فتنة المسيح الدجال – يعتقد أنه وصل لقمة السيطرة على الأرض... حين يصل لهذه المرحلة يُخسف بهم والعياذ بالله.

---

[٢] - عن عائشة أم المؤمنين: "ما رَأَيْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ مُسْتَجْمِعًا ضاحِكًا، حتّى أَرى منه لَهَواتِهِ، إنَّما كانَ يَتَبَسَّمُ، قالَتْ: وَكانَ إذا رَأى غَيْمًا، أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذلكَ في وَجْهِهِ، فَقالَتْ: يا رَسولَ اللهِ، أَرى النّاسَ، إذا رَأَوُا الغَيْمَ فَرِحُوا، رَجاءَ أَنْ يَكونَ فيه المَطَرُ، وَأَراكَ إذا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ في وَجْهِكَ الكَراهِيَةَ؟ قالَتْ: فَقالَ: يا عائِشَةُ ما يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكونَ فيه عَذابٌ، قدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ، وَقَدْ رَأى قَوْمٌ العَذابَ، فَقالوا: (هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا)[الأحقاف:٢٤]"

مسلم (٢٦١ هـ)، صحيح مسلم ٨٩٩ • [صحيح]

لا بد أن ننتبه لكلمة (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ) إذًا التغيرات الاقتصادية التي تحدث كلها منسوبة إلى الله، (أخذناهم بالبأساء والضراء) و(فتحنا عليهم أبواب كل شيء) إذًا مداولة الأيام الاقتصادية هي بيد الله عز وجل (وتلك الأيام نداولها بين الناس) [ال عمران:١٤٠]

الضغط الاقتصادي والانفراج الاقتصادي بيد الله عز وجل، نعم يوجد أيضا أسباب على الأرض، لكن مقاليد السموات والأرض بيد الله سبحانه وتعالى... تمام؟ فنحن لابد أن نذّكر الناس مهما قيل علينا أننا متخلفين ورجعيين، نعم، إن التوبة من الذنوب مهمة لكي يُرفع البلاء ، وما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة، هذه المعاني لا يجب أن تغيب عنا أبدا، وأن الضغط والبأساء والضراء الذي نمر به لابد لها من توبة، ولابد من تضرع لأننا إذا توقفنا عن التضرع والعياذ بالله ماذا سيأتي؟!

كما تعلمون ... تخيلوا هذا المشهد أن قوم جاءهم رسول بآيات، أعرضوا، فجاءت البأساء والضراء فالرسول قال لهم: ألم أقل لكم؟ إعراضكم هذا هو سبب التضييق... يقولون له: لا لا أنت كلامك غير صحيح، هذه ظروف عادية وبعد ذلك ستذهب... تخيلوا لحظة ما تفتح عليهم أبواب كل شيء، قمة الفتنة ماذا سيقولون للرسول؟!! ألم نقل لك! نحن كنا على حق، ألم نقل لك أن موضوع البأساء والضراء هذا ليس له علاقة بالوحي أبدا؟ ها نحن أصبحنا في نعيم، الدول الكافرة كلها في نعيم دنيوي، والدول المؤمنة كلها في تضييق، عرفت الآن أن موضوع البأساء والضراء ليس له علاقة بالشدائد!! هذه فتنة، هذا استدراج.

(حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ) [الأنعام:٤٤]

الإبلاس هو اليأس، الإبلاس: عندما يتعرض إنسان لخطر لكن من شدة الفزع واليأس لا يتحرك، ولذلك أحد معاني كلمة "إبليس" أنه يئس من رحمة الله، لم يسلك أي طريق للتوبة "إبليس" كان أمامه الباب مفتوحا للتوبة، لكن –والعياذ بالله– استمر في الضياع و قال: انظرني ، بدلا من أن يقول: رب تب علي، قال (رب فأنظرني إلى يوم يبعثون) [الحجر:٣٦] ولذلك قيل سمي "إبليس" لأنه يأس من رحمة الله؛ فالإبلاس هو أن يكون شخص مضطرب، فزع، حائر، يائس، ترك نفسه هكذا لا يعرف كيف يمشي...فهؤلاء معهم كل الأسباب لكن عندما جاء العذاب (فإذا هم مبلسون).

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام:٤٥] هنا لم يقل قطع دابر المشركين، ولكن قال قطع دابر الذين ظلموا، لأنهم كانوا يعرفون الحق و أعرضوا عنه، هم ظلمة، ودائما نثني على الله عز وجل بعد إهلاك الظالمين، نسأل الله عز وجل أن يعجل بهلاكهم يا رب العالمين ، (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا) ماذا نقول بعدها؟ (والحمد لله رب العالمين)

لذلك قيل أنه عندما قال عز وجل (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق) [هود:٧١] لماذا ضحكت؟ العلماء استغربوا، فقالوا أول ما علمت أنهم ملائكة ضحكت، لماذا ضحكت؟ تعلم أن الملائكة لا تنزل إلا بالحق، فالملائكة إما أن تنزل بإهلاك الظالمين أو تنزل ببشرى ووحي، فأول ما رأت الملائكة ضحكت فرحا بهلاك الظالمين.

إذًا أول ما رأت أن هؤلاء ملائكة لا يأكلون ليسوا بشرا ، عرفت أنهم ملائكة جاءوا لسيدنا إبراهيم عليه السلام، فضحكت استبشارا بهلاك الظالمين، فحينئذ (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام:٤٥] حتى لا يغتر الإنسان بأنه هو كان سبب في هلاك الظالمين حتى لوهم الذين قتلوهم، لكن هذه دائما فضل ومنة من الله عز وجل على المؤمنين، مهما فعل المؤمنين إهلاك الظالمين يظل فضل وقدرة من الله عز وجل، متى يأتي هذا؟ (انتظروا إنا منتظرون) [الأنعام:١٥٨]، لا أعلم، مثلما ستأتي الآيات (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب) [الأنعام:٥٠] لا أعلم ، متى سيهلك الظالمين، لا أعلم.

(فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الأنعام:٤٥]

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ) مرة أخرى يخاطبهم، إذاً هناك آياتان – أريدكم أن تركزوا معي – خاطبتهم، آية٤٠ و آية ٤١، خاطبت قوم قريش المعرضين، جعلتهم في وضع عذاب (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة) [الأنعام:٤٠]

انتبهوا معي فعندما نأتي هنا ماذا نتوقع أن تقول هذه الآية؟ " قل أرأيتكم إن كنتم في منتصف البحر وهاجت بكم الرياح" أي الصورة المتكررة التي جاءت في سورة يونس وفي العنكبوت وفي الإسراء وفي لقمان، هذا المشهد، مشهد أنهم يدخلون نصف البحر وتأتي الرياح، فيدعون الله (مخلصين له الدين، فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) [العنكبوت:٦٥]

هذا المشهد متكرر كثيرا في القرآن، أنا كنت متوقع هنا أن ربنا يقول لهم: ألستم في نصف البحر تدعون؛يارب؟ لا!!! .. الخطاب هنا من شدة قوته جاء لهم بشيء لا يوجد بشر يمكنه أن ينجيهم منه... عذاب الله الدنيوي عذاب الاستئصال، أو عذاب الساعة أي يوم القيامة.

(أغير الله تدعون إن كنتم صادقين) [الأنعام:٤٠] عذاب استئصال الأمم السابقة وعذاب يوم القيامة مهما حدث تقدم للبشر لن يستطيعوا أن ينجوا منه، الرياح ممكن أو أي أزمة دنيوية كانت تمر بها قريش مع تقدم العلم الدنيوي قد يعرفون كيف يتغلبون عليها، الزلازل، أي شيء فيه تضييق عليهم من البأساء والضراء مع التقدم الدنيوي ممكن أن يتغلبوا عليه، ربنا جعل لهم هنا شيئين مهما فعل البشر لن يستطيعوا أن يقفوا أمامه، عذاب الله الاستئصالي في الدنيا، أو الساعة.

(أغير الله تدعون إن كنتم صادقين () بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه) [الأنعام:٤٠،٤١]

ولذلك قالوا: ربنا قال هنا كلمة (إن شاء) لأن ربنا إذا أنزل العذاب الدنيوي لن يشأ أن يرفعه، (فيكشف ما تدعون) لأن الأصل أن ربنا لن يرفعه، بمعنى لو عذاب نزل على كفار ربنا لن يرفعه، لكن هنا دائما هذه الأشياء مع أنها مطلقة، لكن دائما ربنا يذكر لنا في السياق المشيئة لأنه سبحانه يفعل ما يشاء في كونه (فلما آسفونا انتقمنا منهم) [الزخرف:٥٥]

(بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) [الأنعام:٤١]

إذًا أنا ذكرت لكم – ركزوا معي في ترتيب الآيات– نحن قلنا سورة الأنعام يذكر الله فيها شبهة ثم كلمة "قل" هجوم إعلامي عليهم، ثم تذكر شبهة أخرى ثم كلمة "قل"، فهنا عندما قالوا (لولا نزل عليه آية من ربه) [الأنعام:٣٧] ماذا ردت عليهم الآيات؟ وضعتهم في مكان العذاب، لكن عذاب لا يمكن لأحد أن ينقذهم منه، ثم قالت لهم: لا تكونوا مثل الأمم التي سبقتكم، إن كان –على الأقل– أنتم فيكم خير عن الأمم التي قبلكم، الأمم التي قبلكم عندما كان يصيبها البأساء والضراء لم تكن تتوب، أنتم تتوبون.

الآية التي بعدها تحذير لو ساروا على طريقة من قبلهم، (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم) [الأنعام:٤٦] هذا ليس عذاب حسي، بعض المفسرين قالوا هنا (إن أخذ الله سمعكم) ليس معناه أنه جعلك لا تسمع، (وأبصاركم) ليس معناه أنه جعلك أعمى، لا، بل (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم) أي لو أنتم أصبحتم منكوسي الفطرة مثل الأمم السابقة، الذين كانوا(صم وبكم في الظلمات) [الأنعام:٣٩] ، لو أن ربنا سبحانه وتعالى أراد أن يضلكم، مادامت الآيات تأتي لكم مستمرة وأنتم مازلتم مصرين على الإعراض، فتخيل لو ربنا أراد أن يختم على سمعك وعلى بصرك وعلى قلبك، (مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ) [الأنعام:٤٦]

إذًا هذه غير(قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله)[الأنعام:٤٠] الأولى تخويف بعذاب حسي، والثانية تخويف بعذاب معنوي، صرف عن الطاعة. بمعنى؛ أنت لك من وسائل الدعوة أن تخوف واحد، تقول له: انظر أنت واقف تسمعني الآن لكن ممكن بعد ذلك ربنا يغلق قلبك فلا تعد تسمع لأحد في الدين، فاستغل أنك واقف وحزين من نفسك الآن، لأن بعد ذلك ممكن يأتي وقت عليك لا تريد أن تسمع كلمة في دين ربنا، بمعنى عندما تأتي تدعو واحد مثلا معرض، وتكلمه وهو مازال معرض، قل له: أنت اليوم واقف تسمعني ومتضايق من حالك، غدا لن تسمعني أصلا، أنت اليوم قبلت أن أحد يكلمك، غدا لن تسمح أن يكلمك أحد، ولو وصلت لهذه المرحلة لن ترجع مرة أخرى، لو وصلت لهذه المرحلة الله سيختم على قلبك، فلن ترجع مرة أخرى. إذًا هذه أحد وسائل التخويف، مثل ما أخوفه بالعذاب الحسي أخوفه بالعذاب المعنوي.

الصرف عن الطاعة

تعلمون القصة المشهورة التي تحكي أن رجل جاء للحسن البصري وقال له: القرآن يقول (فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ () فلما نسوا ما ذكروا فتحنا عليهم أبواب كل شيء) [الأنعام:٤٤،٤٣] فيقول له أنا مفتوح عليّ في الدنيا ومعي مال وأعصي ربنا، وربنا لا يعاقبني؟! .... فالحسن البصري قال له: ءأنت تقوم الليل؟ قال له: لا طبعا، قال له: يكفي أن حرمك مناجاته.

لماذا أنت لا ترى أن هذا عقاب؟!!

فنحن علينا أن نوجه الناس؛ أنه يوجد شيء اسمه عقاب الصرف عن الطاعة، نوجه عقول الناس أن من أنواع العقاب أنك تحرم المناجاة، أن من أنواع العقاب أنك تحرم من صلاة الفجر، أن من أنواع العقاب أنك تحرم من العمل لدين الله، علينا أن نوجه الناس لهذا. إذًا يا جماعة دورنا ليس فقط أن الناس تُعظم أمر الفقر وتخشاه فيكون كل صور العذاب هو تخويفهم من الفقر فقط، لا، الناس تعظم الدنيا يصبح كل كلامنا عن الدنيا فقط، لا... نحن لابد أن نوجه ونذكر الناس بمعاني غائبة عنهم ، هذا دورنا في القرآن، القرآن فيه أمور غامضة عند الناس، القرآن يعيد صياغة عقول الناس، يعظم لهم العظيم ويحقر لهم الحقير، الناس تحقر العظيم وتعظم الحقير، ممكن ناس تظل حزينة شهر لشيء مثلا حقير أصلا في دين الله، وممكن لا تحزن ولا تفكر بابتلاءات متتالية تحدث... موت العلماء مثلا، ممكن الناس لا تحس أن هذه مصيبة، وعكس ذلك، خسارة مثلا مباراة كرة قدم!!!

مثلا الأعوام التي مات فيها ابن باز و ابن عثيمين والألباني والشعراوي كانت في سنتين متتاليتين كانت تقريبا ٢٠٠٠-م٢٠٠١ أو في المنطقة هذه، من قال أن هذا ليس عقاب!! " إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد و لكن يقبض العلم بقبض العلماء....." [٣].

فممكن هذا يمر كشيء عادي، ملايين، ألوف مؤلفة من البشرلم تشعرأن هذا شيء ذو أهمية، في حين شيء تافه جدا؛ مثلا الذين حزنوا لأن أحدهم لم يكسب في ستار أكاديمي، ممكن البلد كلها ماذا!؟ حزنت! أو تفرح أنه فاز وتعمل أفراح!!! فإذاً نحن دورنا أننا نبين لهم.

فتعجبت أن هذه الآية تخويف،وهو أصلا ضال!، بمعنى أنه يقول لهم ما رأيكم ممكن ربنا يختم على قلبك ولا تطيعه... لكن هو أصلا خاتم عليه!! فتخيل أن هذا ممكن يستعمله كأسلوب تخويف للعاصي!! (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ) [الأنعام:٤٦] هذا تهديد، أنت تقول له، أنت مستمر في قولك أنك تريد آية... تريد آية! ضع في اعتبارك سيأتي وقت هذه الآيات لن تؤثر فيك ، أنا أحذرك و تهلك مثل الذين قبلك، مثل من؟ الذين أصابتهم البأساء والضراء ولم يتضرعوا، وزُين لهم وفُتح عليهم وفرحوا وأُخذوا بغتة، إذًا ستذهب وتهلك مثلهم... لو ختم الله على قلبك وأخذ سمعك وبصرك ستنطبق

[٣] - عن عبدالله بن عمرو: " إِنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ العِبادِ، ولَكِنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بقَبْضِ العُلَماءِ، حتّى إذا لَمْ يُبْقِ عالِمًا اتَّخَذَ النّاسُ رُؤُوسًا جُهّالًا، فَسُئِلُوا فأفْتَوْا بغيرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا"

البخاري (٢٥٦ هـ)، صحيح البخاري ١٠٠ • [صحيح]

عليك الآيتين التي قبلهم، ووقتها ستُؤخذ بغتة وتصبح مُبلس وسيُقطع دابر الظالمين و سيُقال الحمد لله رب العالمين.

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) [الأنعام:٤٦]

معني يصدفون

"يصدفون" لم تأت غير في سورة الأنعام، يصدف: قال المفسرون هو الإعراض الشديد،

يقولون من" صدفة الجبل" شيء في الجبل يصطدم فيه الصوت ويرجع مرة أخرى، أو أيا كان

بعضهم قال معنى غريب جدا في اللغة يقول: المرأة الصدوف هي التي لا تشتهي القُبَل، ما معنى هذا؟ أي أن زوجها يحبها ومهما يحاول يرضيها تبعد عنه.

فكأن (ثم هم يصدفون) مهما يتودد الله عز وجل لهم بالآيات هم لا يزالون معرضين لا يريدون أن يقبلوا، ف "يصدفون" لم تأتي غير في سورة الأنعام وتكررت ثلاث مرات عليهم- والرابعة بلفظ صدف -، فسورة الأنعام توضح قمة وضوح الآيات وقمة إعراض المشركين.

لذلك الآية جاءت (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ)

"ثم" هذه سميناها الاستبعادية الاستنكارية، "ثم" بمعنى بعد كل هذا (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ)

نفس مقدمة السورة (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۖ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ) [الأنعام:١] فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات والأرض وعرَّفنا النور من الظلام، وتخيل بعد كل هذا الكفار يشركون بالله !! بعدما خلق السموات والأرض وعرَّفنا النور من الظلام وأرسل لنا الرسل ...

"ثم" هذه ماذا يسمونها في اللغة؟ اسمها "التراخي الرتبي" استبعاد واستنكار، (انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) [الأنعام:٤٦] لو ظلوا هكذا، ماذا تقول لهم؟ (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله) [الأنعام:٤٧] هكذا إذاً سيأتي لكم العذاب، طالما إعراض، وآيات لا يستفيدون منها... تكرار الآيات، إعراض، بأساء وضراء لم تؤثر فيكم ولم تخيفكم و ظللتم على نهج السابقين، إذًا نهايتكم

ستكون مثلهم (قُل أَرَأَيتَكُم إِن أَتاكُم عَذابُ اللَّهِ بَغتَةً أَو جَهرَةً هَل يُهلَكُ إِلّا القَومُ الظّالِمونَ) [الأنعام: ٤٧] وفي النهاية ماذا سيأتي لكم؟ عذاب الله وليس لزاما أن ياتيكم بغتة مثل السابقين، لا ، بمعنى ممكن تكونوا عالمين أن العذاب سيأتي ولا تتوبوا، وتحاولون التحصن منه ولا ينفع معكم شيء، هذه أحد معاني قول الله عز وجل "جهرة"

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) [الأنعام:٤٧]

ماذا تعني بغتة؟ مفاجأة ، إنما "جهرة" معناها اللغوي، جهارا أي علانية ... لكن لما تضع "جهرة" أمام كلمة "بغتة" .. ما معنى بغتة؟ مفاجأة، فكلمة جهرة معناها "ليس مفاجئ"... أي أنهم يعلمون أن هناك عذاب قادم، مثل قوم سيدنا نوح يرونه يصنع السفينة، ويقول لهم أن هناك عذاب قادم ومع ذلك لم يتوبوا!!!

الآية التي قبلها (حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً) [الأنعام:٤٤] أنتم إذًا أشد منهم طغيانا،لو لم تتوبوا بعد كل هذه الآيات ،سيأتيكم العذاب والعذاب من الممكن أن يأتي لكم جهرة.

إذاً من معاني جهرة أن العذاب يأتي و أنتم تعلمون أنه سيأتي...

إذًا جهرة تفيد شيئين :

_أنكم ستصلوا لإعراض شديد –والعياذ بالله– قمة الإعراض أنك تكون على علم أن العذاب سيأتي ولكنك لن تؤمن

_أو هو تهديد مهما بلغت من تحصين نفسك من العذاب و أنت تعلم أن العذاب سينزل لن تستطيع أن تفعل أمامه شيئاً.

مثلا من الممكن أن تعلموا أن العذاب سيأتي ريح ، تظلوا سنة تتحصنوا من الرياح ، ومع ذلك تأتي الريح وتأخذكم مهما فعلتم.

يا أخوه القرآن يضغط نفسيا ليجعل من يخاطبه يتوب ، فإذا استعملنا أسلوب القرآن في الدعوة ، القرآن يحاصر النفس البشرية .

الأية ٤٧ هذه هي تكملة للآية ٤٦ ، (قل أرأيتم إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم) [الأنعام:٤٦] إن لم تؤثر فيكم هذه الآية فالعذاب سيأتي لكم بغتة أو جهرة.

الآية ٤٧- حال أنكم استمريتم على الإعراض – الذي هو معنى يصدفون - عن آيات الله ، فعذاب الله سيأتي سيأتي.

ولن تقولوا أول ما يأتي العذاب " تبنا إلى الله"... بل ستظلوا في قمة الإعراض... لن يكون حالكم كحال قوم يونس (لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين) [يونس:٩٨] حين رأوا العذاب آمنوا... لكن مثل قوم هود (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) فاستبشروا به (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) [الأحقاف:٢٤] فأُهلكوا.

قريش حين رأوا الدخان (يغشى الناس هذا عذاب أليم) قالوا (ربنا اكشف عنا العذاب) [الدخان:١١،١٢] تابوا، فالله سبحانه وتعالى قال لقوم قريش أنتم فعلتم مع الدخان مثل قوم يونس وتبتم ، فصرفت عنكم الدخان (إنا كاشفوا العذاب قليلا إنكم عائدون) [الدخان:١٥] ستعودوا مرة أخرى ... أي أن ربنا يقول لهم: أنا أعلم أنكم بعد كشف العذاب ستعودوا مرة ثانية. فاحذروا المرة القادمة قد يأتي العذاب وتصنعوا كما صنع قوم هود ولا تكونوا مثل قوم يونس. أي أنك ترى العذاب ولا يكون في بالك حينها ، فحين يأتي العذاب ويأتي الدخان تقول لا لا... هذه مجرد رياح ستأتي لنا بالمطر!!! هذا هو قمة الإعراض.

(قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ) آية ٤٧... وقبلها في الآية ٤٥ (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) انظر إلى ترابط الآيات.

إذًا الآيتين ٤٠,٤١ يخاطب قوم قريش ولم يصلوا لقمة الإعراض بعد، يقول لهم: من الممكن أن تصيبكم الضراء فتقولوا يا رب ،فينكشف الضر... لكن انتبهوا هذا الوضع لن يستمر طويلا، أي أنه ليس في كل مرة تأتي فيها الضراء تقولوا يا رب فربنا ينجيك ثم بعدها تُعرِض وتعود لسابق عهدك... إذا استمريت على هذا الوضع ستصبح مثل الأمم السابقة ، أي حين تأتي البأساء والضراء لا تهتم ولا تنتبه (وزين لهم

الشيطان ما كانوا يعملون) [الأنعام:٤٣] وعندها (فتحنا عليهم أبواب كل شيء) [الأنعام:٤٤] فحذِّرهم يا رسول الله ، قل لهم أنكم من الممكن أن تصبحوا مثل الاقوام الهالكة ...

كيف هذا ؟

ربنا يأخذ سمعكم وأبصاركم و يختم على قلوبكم ، فتصبحوا مثلهم، وحين تصبحوا مثلهم سيأتي لكم العذاب بغتة أو جهرة.

هذا رد على المشركين لأنهم قالوا: نريد آية... كل هذا الخطاب وهذا الضغط... تضغط عليهم نفسيا أنتم تريدون آية؟

_أنت كنت في البحر وقلت يا رب ؛ هذه آية،

_لو نزل العذاب ستقول يا رب ؛ أيضا تلك آية.

نحن قلنا قبل أن يطلبوا آية ، النبي صلى الله عليه وسلم من شدة حرصه عليهم لو أُمر أن يحفر نفق في الأرض، أو يصعد للسماء ويأتي لهم بآية لفعل ، لو أُمر بهذا لفعل... فقد كان – صلى الله عليه وسلم – يود أن يهدي قومه بأي شكل... فالله جل وعلا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم : (وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) [الأنعام:٤٨] أي أنه ليس من وظيفة الرسل أن يأتوا بالآيات، ليست وظيفة الرسل أن يستمعوا لإقتراحات أقوامهم [ماذا تفضلوا أن أصنع لكم؟! سلم في السماء؟! أم أنفاق في الأرض؟! نفق في الأرض وتنزلقوا عليه، أم تحبوا أن أنزل لكم كتاب من السماء في قرطاس و تمسكوه بأيديكم؟ أم تفضلوا أن أفجر لكم من الأرض ينبوعا؟! ، لا لا... بل حوّل لنا هذا الجبل ذهب!!!] هذا لا يريد أن يؤمن... هذا يستهزئ، هذا يلعب.

فربنا يقول للنبي صلى الله عليه وسلم وظيفة الرسول مبشر ومنذر، وبالرغم من أنها حقيقة سهلة وواضحة إلا أنها للأسف تغيب عن كثير من الدعاة الآن...

(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ) [الأنعام:٤٨] بصيغة الحصر والقصر ، وفي كل الأحوال هناك أناس ستؤمن وهناك أناس ستكفر (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ () وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) [الأنعام:٤٩] .

اذاً هناك أُناس ستؤمن بك وهناك أناس ستكفر بك ، لابد أن توطن نفسك على هذا من البداية. أما أنك تنشغل أن تصنع لهم نفق في الأرض أو سلم في السماء وتأتي لهم بآية ، ويقولوا لك نريد آية ، وتقول: يارب أنزل لهم آية!

لابد لنا أن نستفيد من التجارب السابقة ،أليس هذا ما حدث مع فرعون وقومه ولم تؤثر فيهم الآيات !!!

قالوا نريد آية!.. يأتي الطوفان يقولوا آمنا ، يرفع يديه للسماء يا رب اصرف الطوفان ، الطوفان يتوقف .. وبعدها يكفروا، نريد آية أخرى... القمل، الضفادع ، الدم ، الجراد ،، آيات مفصلات بينهم فواصل لعلهم يفيقوا... ولكن دون جدوى!!!

فأنت وظيفتك التبشير والإنذار ، وظيفتك أن تبشر الناس وتنذر الناس(وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ() وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) [الأنعام:٤٨،٤٩]

ثم شوط آخر من (قل)... (قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)[الأنعام:٥٠] أخبرهم إذاً أن كل الآيات التي يريدونها ليست عندك... النبي صلى الله عليه وسلم نفى عن نفسه ثلاثة أشياء... خزائن الله وعلم الغيب وأنه مَلك .. ونفس هذه الثلاث أشياء سيدنا نوح نفاهم عن نفسه في سورة هود ، نفس الثلاثة أشياء، نفي أن يكون عنده خزائن الله، أو أنه يعلم الغيب، أو أنه مَلك...

لماذا هذه الثلاثة أشياء ؟ هذا ما سنعرفه في الحلقة القادمة ، نكتفي بهذا القدر...

سبحانك اللهم وبحمدك نشهد ألا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك و جزاكم الله خيرا .